أضواء على طبيعة النظام المغربي

في سنة ١٩٧٠، نشر الباحث الامريكي "جون واتربورى" كتابا تحت عنوان: "أمير المؤمنين ـ الملكية والنخبة السياسية"، ترجم للغة الفرنسية سنة ١٩٧٩، في طبعة مضاف اليها ومنقحة على ضوء التطورات التي عرفتها البلاد خلال تلك الفترة.

ويتضمن هذا الكتاب عدة فصول تحتوى على معلومات ومعطيات مفيدة لتحليل طبيعة النظام وتشريح الاساليب التي يعتمدها لممارسة حكمه المطلق.

وتعميما للفائدة، نقدم فيما يلي ترجمة مقتضبة لجزء من الفصل السابع، مع الاشارة الى أن التحليلات والتوجيهات التي تضمنها الكتاب لا تمثل سوى رأى صاحبها، مع التأكيد على أهمية المعطيات وكذا بعض التقييمات التي تعرض لها الكاتب.

استراتيجية القصر

يبدو في غالب الاحيان أن القصر ليست له استراتيجية على المدى البعيد تتجاوز أمله في انجاح تكتيكاته على المدى القريب الا أنه يمكن استجلاء بعض الخطوط العريضة لسياسة عامة وأكثر منهجية، يمكن تلخيصها في النقط الاساسية الاتية:

١) الاضطلاع بدور "الحَكَم" فقط:

ان القصر لا يقوم بمعالجة المشاكل الحيوية مثل التنمية الاقتصادية والتغيير

الاجتماعي الا من زاوية تقنية محضة. ولا ينظر الى مشاكل التعمير والانتاج والبطالة وغيرها من وجهة هيكلية (اصلاح زراعي، تأميم الصناعة، الخ...)، بل من زاوية الحلول التقنية (الاسمدة، السكن، السدود...).

ان تنفيذ مخطط تنموي بكل ما يتطلبه ذلك من حزم، يفترض تأييد الامة بكاملها، ويستوجب تجنيدها وتأطيرها. والواقع أن القصر كان يسعى بالضبط الى تجنب انشاء مثل هذه القوة. لانه يخشى أن يصبح سجينا أو ضحية لها. لذا فضل الاضطلاع بدور الحكم، وأن يستعمل السلطة بصورة دفاعية، عوض الاضطلاع بدور الزعيم الذى يغرى حقا، لكنه ينطوى على كثير من المخاطر.

ولم يكن الملك يتميز عن الحركة الوطنية ابان الاستقلال، لكنه ابتعد عن جميع الاحزاب فيما بعد، لاثبات دوره كحكم بالنسبة لمجموع المجتمع المغربي، ولقد ذهب الى أبعد من ذلك، لانه شجع، أو بالاحرى حرض على تأسيس تشكيلات سياسية متعددة، تتبلور فيها كل القوى التي ظلت الى ذلك الحين كامنة. ولما تحقق له ذلك، أصبح بامكانه أن يطالب بدوره كوسيط منصف ونزيه، يفصل بين الجماعات المتنازعة، واضعا نفسه فوق كل الفوارق، في حين كان يقوم من خلف الستار بتشجيع بعضها وتقويض بعضها الاخر. ولقد تفوق في ذلك، الى درجة أن تحكيمه لم يكن مقبولا فحسب، بل كانت ترغب فيه كل النخب التي كانت تتسابق حول ما يتركه القصر لها من نتف السلطة.

٢) مبدأ فرّق تسد:

ورد في المقدمة أن المجتمع المغربي كان يتركب ــ وما يزال لحد ما ــ من قسمات متعارضة يرتكز توازنها على التوتر والنزاع. وبما أن هذه الظاهرة تشكل احدى ثوابت الحياة السياسية المغربية، فان دور التحكيم بين الجماعات المتنازعة هو أهم الادوار داخلها. وقد احتفظ هذا الدور بأهميته في المغرب المعاصر، لكون القوى السياسية ما تزال منقسمة ومتنافسة. الشيء الذى جعل عاهلي المغرب بعد الاستقلال يباشرانه بصورة متعمدة ورسمية.

وقد أخضع القصر سلوكه لانجاح هذا الدور الى المبادىء البسيطة التالية:

أ) عدم السماح لاية جماعة أن تتقوى أكثر من اللازم وتشجيع كل المنافسات الممكنة للحيلولة دون هيمنة واحدة منها. وعدم القبول بانقراض أية جماعة مهما كانت، بما في ذلك أحزاب المعارضة، اذ يمكنها أن تجمد أو تعطل نشاطها مؤقتا شريطة أن تحتفظ على شعلة من الحياة، يمكن احياؤها عند الضرورة.

ب) بما أن الجماعات السياسية المغربية تتشكل عادة من رئيس وأتباع، فان أفضل وسيلة لابقائها على قيد الحياة هي السهر على أن لا يفقد رئيسها كامل نفوذه. ويتجلى هذا النفوذ في امكانية الاتصال المباشر بالقصر، الذى يعتني عن طريق عدد من المبادرات الرمزية مثل المشاورات الرسمية والتكليف بمهمات في الخارج، الخ...

بمساعدة القادة على الاحتفاظ بقسط أدنى من ثقة أتباعهم.

ج) عدم ربط مصير القصر بمصير الجماعات التي يساعدها على الظهور (مثل الحركة الشعبية وجبهة الدفاع عن المؤسسات الدوستورية، وغيرها)، وعدم تبني مواقفها أو برامجها. وهو بذلك يستطيع الاستفادة من نجاح أية حركة تعمل باسمه، ويمكنه التخلي عنها في حالة اخفاقها.

النخبة والعائلة الملكية

١ ــ النخبة:

تحيط بالملك مجموعات من الاتباع المخلصين لكنه يسعى الى جلب النخبة بكاملها داخل شبكة أنصاره. ومع أن بعض الجماعات قد ربطت مصالحها بمصالح القصر أكثر من أخرى، الا أن الملك يؤكد على مفهوم "النخبة كعائلة كبيرة" ملتفة حول مبدأ التفوق المطلق للعرش، مهما كانت الاختلافات بين ممثليها.

ويستعمل الملك رغم مقامه وسلطته الفريدة، نفس الوسائل التي يستعملها أى عضو من أعضاء النخبة. اذ تطبع بأساليبهم وطرق سلوكهم، لانه كان زميلا أو تلميذا أو معيلا لكثير منهم خلال مرحلة الحركة الوطنية. لكنه هو الذى وضع قوانين اللعبة وقرر أنواع المكافأة والعقاب. وهو يستعمل جميع ما لديه من وسائل الضغط لدفع النخبة الى الدخول في مخططاته واثارة شعور جماعي لديها، شعور الجماعة المحظوظة التي تعرف أنها تدين له بكل ما تملكه من امتيازات، وبعد اعلانها عن خضوعها لقواعد اللعبة يرخص لها بالتسابق لتوزيع منافع النظام بينها:

أ) فهو يشرف على توزيع جميع الصفقات المربحة والمعاشات المريحة. وتشكل هذه الوسائل عوامل ضغط فعالة على النخبة، استعملها السلاطين المغاربة باستمرار لخلق علاقات الولاء أو توطيدها.

ولقد أصبحت البورجوازية التجارية مدينة معنويا أو ماليا ازاء السلاطين منذ الانفتاح التجارى الذى عرفه المغرب في القرن التاسع عشر. ولقد بنى الملوك للتجار القصبات والمستودعات وسهروا على تأمين حمايتهم من القبائل، ومنحوهم رخص الاستيراد والتصدير، واعفاءات من الضرائب الجمركية. وكانت كلها وسائل لشد البورجوازية التجارية الى النظام. ومع الاستقلال تضاعفت امكانيات القصر الاقتصادية للضغط على جماعة أتباعه.

ولقد بذل عاهلي المغرب بعد الاستقلال كل ما في وسعهما لتأمين رخاء النخبة. وفي نفس الوقت لم يترددا عن استعمال العنف ضد كل من كفر بنعمتها.

ب) وبما أن الادارة تشكل مصدرا هاما من مصادر الربح بالنسبة للموظفين، فان الملك هو الذى يشرف على التعيينات في المناصب العليا، وعلى الترقيات داخل

الجيش. وهو يستعمل أسمى المناصب الادارية لنفس الاغراض التي يستعمل من أجلها توزيع المنافع والمكافئات المادية، أى لفرض وصايته على النخبة، أو لتطويق أتباع جدد، أو تجميد المعارضين. ونادرا ما يتجرأ عضو من النخبة على رفض تعيين ملكي.

ومن جهة أخرى، تعمل كل جماعة داخل النخبة على دفع عناصر منها الى مناصب المسؤولية لاستغلال نفوذهم والحصول على حماية الجهاز. وتسهل هذه الممارسات الامر على الملك، لانه يستطيع بتحويل اتجاه سيل الفوائد التي يمنحها أن يقوى هذا التيار أو يضعف ذاك، مع الاحتفاظ على قدر من التوتر داخل النخبة.

٢ ـ العائلـــــة الملكيـــــة:

أ) الدور الروحي: تشكل العائلة العلوية نواة الجماعة الدينية لاتباع الملك، ويتجاوز اتساعها حدود النخبة. وهو يعمل على توسيع شبكات نفوذه داخلها. كما يعمل على الزيادة من عدد تحالفاته داخل أسرته الدنيويـة. وتتحرك هاتان الاسرتان تحت قيادة شخصين متميزين يجسدهما فرد واحد: الملك، كرئيس الدولة المغربية، وكأمير المؤمنين. وهو يؤكد باستمرار على ازدواجية دوره الاساسية.

هذا وان العلويين لا يشكلون سوى جزء من جماعة أتباع الملك الدينية. ولباقي السلالات الاخرى وكذلك العلماء والنساء بصفة عامة بالاضافة الى بعض الزوايا حاسيـة للصفات المقدسة للملك.

وهذا لا يعني أن جميع العلويين يقدسونه، بل في بعض الحالات يكون العكس هو الصحيح... ويشكل الجد المشترك لهذه الاسرة مبرر وجودها. أما الملك فانه مجرد عضو من أعضائها تفوق على جميع الاخرين ـ وفي كل سنة يزف الى الرباط مئات العلويين لتجديد ولائهم للسلطان أثناء الحفلات الدينية. ويتوصلون مقابل ذلك بهبات تمنح للنقيب، ومـؤن توزع على علويي تافيلالت وهدايا خلال شهور رمضان. أما صفوة الاسرة فيغمرها النظام بالمناصب الرسمية. ان هيئة الباشوات غاصة بالعلويين.

ب) الدور الاقتصادى: يشارك أعضاء العائلة المالكة بشكل نشيط في الاعمال التجارية، ويملك القصر استثمارات هامة في الابناك والمؤسسات الوطنية والاجنبية. وقد تزوجت أخوات الحسن الثاني خارج العائلة المالكة، ويحظى أصهاره أمثال حسن اليعقوبي وأحمد عصمان ومحمد الشرقاوى بدعم القصر لانجاح مشاريعهم. وهو يسعى عن طريقهم الى انشاء نوع من "البطانة الاقتصادية".

وقد تضاعفت الثروة العقارية التي تملكها العائلة الملكية باستمرار. وهي تستعمل وسائل عصرية لاستغلال أرضيها، وتحتل الصف الاول داخل البورجوازية العقارية. وهناك أسباب جد مباشرة لهذا الشـره العقارى: فالاراضي الفلاحية تدر مداخيل منتظمة، ويمكن اقتناؤها بثمن بخس، كما أنها تدعم قاعدة العرش الاقتصادية. وجاذبية العقار تغرى أعضاء العائلة الملكية بنفس القوة التي تجلب بها أى عضو من أعضاء النخبـة.

المؤسسـات الوطنيـة ومسألـــة السلطـــة

أ) مسألـــــة السلطـــــة:

ان القاعدة الوحيدة من قواعد اللعبة السياسية التي لا نقاش فيها، ويؤدى خرقها الى عقاب مباشر، هي تلك التي تنص على أن شخص الملك ومؤسسة العرش لا يمكن أبدا أن تهاجم أو تتعرض للنقد بصورة مباشرة وعلنيـة. لذا يتجنب الجميع بعناية مسألة السيادة. ورغم استفتاء الدستور لسنة ١٩٦٢، فقد كان الحديث حول سيادة الشعب من قبيل المجازفة. ولقد أوردت جريدة حزب الاستقلال بالفرنسية نصا لجمال الدين الافغاني يقول فيه: "يمكن للشعب أن يعيش بدون ملك، لكن الملك لا يمكنه أن يعيش بدون شعب". وبعد ذلك مباشرة حكم على ادريس الفلاح رئيس تحرير الجريدة، بعشرة أشهر سجنا.، ووقفت الجريدة لمدة نصف عام. كما لقى عبد الرحمن اليوسفي ومحمد البصرى نفس المصير بعد أن نشرا في "التحريـــر" مقالات كان يبدو أنها تطعن في سيادة العرش.

ويرفض الملك بكامل الاصرار أن يفوض أى جزء من سلطته أو أن يخفض المراقبة التي يمارسها على الجيش. وكل من يثير مسألة شرعية هذه الامتيازات أو يتجاوز "حدود الطاعة"، يعاقب بصرامة أو يطرد من "العائلة (النخبة)". ويشكل مثال بنبركة أقصى ما يمكن أن يصل اليه هذا الامـــر.

وهو يفضل أن يمنح هباته بشكل فردى تعبيرا عن جوده وسخائه، ومن أجل خلق علاقات الزام واخضاع أكبر عدد ممكن من الجماعات.

وفي نفس السياق لا يعلن الملك دائما الا عن عفوه بالنسبة للمعتقلين السياسيين أو غيرهم: ويعني ذلك أن خطاياهم لم تمح وأنه فضل هو أن يغض الطرف عنهـــا رحمـــة منـــه.

لقد طالب الاتحاد الوطني للقوات الشعبية أن ينال بنبركة عفوا بعد أن حوكم بالاعدام سنة ١٩٦٤، وطالب الحزب أن يصدر قرار العفو في الجريدة الرسمية. لكن الملك اكتفى بالاشارة ضمن خطاب عيد الاضحى ١٩٦٥، الى امكانية عفوه عنه ان هو عاد الى المغرب. وأشار بهذه المناسبة الى دوره المنصف قائلا: "وانني أبذل للذين صفحت عنهم وعفوت، فرصة ثمينة للاندماج في حظيرة الامة والعمل في نطاق مؤسساتها الدستورية ومنظماتها السياسية. فان هم أضاعوا هذه الفرصة، واذا هم تمادوا في غيهم واعتبروا الحلم بابا مفتوحا يمكنهم أن يلجوءه في كل آونة وحين، فانني أحذرهم من مغبة سوء نظرهم وعاقبة فساد أمرهم، وأنبههم أن للحلم حدا وأن للتجـاوز نهايـــة".

ب) المؤسســـات السياسيـــة:

١) لم يرض الملك عن التجربة الديموقراطية البرلمانية لفترة ١٩٦٥/٦٣،

لانها غرقت في النزاعات العقيمة بين الاحزاب والنواب المنتخبين دون أن تفرز أغلبية طيعة. وهاجم خلال مدة البرلمان القصيرة وبعدها، مفهوم الديموقراطية البرلمانية، أكد أنها تعرقل الكفاح ضد الفقر، وصرح أن البرلمانية تتناقض مع الديموقراطية الحقيقية. وعندما قام بحل البرلمان في يونيو ١٩٦٥، أكد أن مناقشاته العقيمة كانت ستنال من الديموقراطية المغربية " ... وبما نعتز به من كرامة وفكر خلاق".

٢) وفضل الحسن الثاني أن يعود الى أسلوبه المألوف الذى يعتمد على المجالس الاستشارية التي يعين أفرادها بمرسوم ملكي. ولهذه المجالس دور استشارى محض، وللملك كامل السلطة في استدعائها أو حلها. ان علاقة المجلس بالملك تؤكد دور "الاب" الذى اختاره لنفسه في علاقته مع النخبة، وفي مذكرة بعث بها للاحزاب بعد أحداث مارس ١٩٦٥، صرح قائلا: "ويدى مبسوطة لرعايا كافة دون تمييز، لانهم جميعا أبنائي".

٣) لقد استعمل الملك عن وعي هيبته الدينية لما اقتحم بصورة مباشرة الميدان السياسي كرئيس للحكومة من ١٩٦١ الى ١٩٦٣، وكمشرف مباشر على ميلاد "جبهة الدفاع عن المؤسسات الدستورية" في استفتاء ١٩٦٢، لاحباط المعارضة التي كانت تنتقد مواقفه على المستوى السياسي المحض.

٤) ومع ذلك فهو يريد أن يبقي في نفس الوقت على ما يشبه النشاط السياسي حفاظا على الواجهة الليبرالية لنظامه. وهو يناور في الوقت ذاته للتخفيف من حدة الانفعالات وقطع طريق استقطاب أتباع جدد على القادة السياسيين. وقد عمل على الحد من القوى المناصرة للمعارضة المتمركزة في المدن، والتي تتوفر على عدد كبير من العاطلين منخرطين في تنظيمات نقابية. وسعى الى قلب هذه الوضعية لصالح البادية التي حظيت مشاكلها بكل عنايته في السنوات الاخيرة، وشجع على خلق نخبة قروية بانشاء المجالس الاقليمية القروية. وبينما تحاط عمليات تدشينه لبناء السدود بدعاية صاخبة، انقطع عن الحضور في الاستعراض العمالي لفاتح ماى. وقد ساهمت وزارة الداخلية بنشاط في السياسة الملكية باتخاذ اجراء اعادة سكان أحياء القصدير العاطلين الى قراهم سنة ١٩٦٧، لتشتيت تجمعاتهم داخل المدن الكبرى. كما شاركت الحركة الشعبية، حزب البربر الملكي، بدورها في هذه الاستراتيجية لانها تحاول منذ ١٩٦٦، استقطاب سكان أحياء القصدير، وقطع الطريق داخل البوادى على النقابات والاحزاب ذات الاصل الحضرى.

ج) الجيـــش والشرطـــة:

يعتمد الملك أكثر فأكثر على وزارة الداخلية والجيش لتطبيق مخططاته في الميادين الاقتصادية، من ادارة الاراضي المسترجعة من طرف الدولة الى بناء المدارس أو توظيف عاطلي المدن والبوادى. وتشكل كل من وزارة الداخلية والجيش وسيلتين من وسائل السلطة. وهو يعتمد عليهما لمواجهة ضغوط المعارضة، ويعقد عليهما كل

آماله في تحقيق هدفه الاسمى، ألا وهو: تحقيق "التقـــدم" في جميع الميادين بفضل اجراءات تقنية دون احداث أى تغيير في الوضع السياسي الراهن. ويظل الجيش في حالة احتياط ضد كل من يريد انكار حق الملك في تسيير اللعبة السياسية حسب رغبته. وهو لا ينقطع عن تذكير جميع المشاركين (بما فيهم الجيش) بأن هيبته الدينية تمده بسند شعبي يجعله فوق كل الجماعات التي تكون النخبـــة.

الشـــبـــاب:

يواجه النظام الملكي مشكلا ملحا، هو مشكل اقتراح ايديولوجية قادرة على ارضاء طموحات الشباب المغربي. ولقد اعتمد الحسن الثاني لحد الان في هذا الميدان على خليط من روح المواطنة والقيم الدينية لتكوين عقلية رعاياه ومواطني المستقبل. انه يحث الشباب على التضحية والعمل من أجل الوطن ــ على غرار الذين تطوعوا في عهد والده لبناء طريق الوحدة ــ ، وبعد الفيضانات التي أصابت تافيلالت في عام ١٩٦٥، دعا الى العمل الطوعي من أجل بناء سد على وادى زيز، ليكون رمزا للانطلاقة الوطنية. وفي يونيو ١٩٦٦، أعلن عن الخدمة العسكرية الاجبارية، وقرر في صيف ١٩٦٨، تأسيس هيئة من الشباب للقيام بأشغال خدمة الصالح العام. وقرر في نفس السنة اقامة الصلوات داخل المدارس، وشرع في بناء دور الشباب لتلقين الشباب القيم الوطنية. ورغم أنه يدرك تماما أن الشباب لا ينخدعون مثل أبائهم وأجدادهم لضغط المظاهر الدينية، فهو يريد مع ذلك أن يحافظ على هذا القطاع من الرأى العام الذى استعمله في الماضي كسند لقلب ميزان القوى لصالحه ضد معارضة ذات ميولات علمانية.

خـلاصـــــــات

١) لقد ضحى القصـر بمستقبل مشاكل البلاد من أجل الهيمنة على النخبة، وأدى به نجاح مناوراته بالذات الى ردود فعل منها: أن كل جماعات النخبة أصبحت جوفاء من جراء مراقبة جميع نشاطاتها ومتابعة حتى العادية منها. وتبقى هناك قوتان لا يمكنه أن يقوض أسسها، وهما الشرطة والجيش. ويضطر حاليا الى استعمال كل ما لديه من مهارة بمزاولة دوره التحكيمي، لكن التلاعب بقادة قوات الامن، وابطال فعاليتهم بدفع كل منهم ضد الاخر من أجل استئصال كل ميل للانقلاب ضد العرش عملية خطيرة انساق فيها القصـر.

٢) لقد قبلت النخبة بطواعية تقليص مجال نشاطها لانها وجدت في ذلك بعض التعويض: فهي تنتقد النظام وتستفيد منه في آن واحد. وقد طالب بعض الوطنيون، بكل اخلاص، أن تكون المسؤوليات السياسية الوطنية مسؤوليات جماعية، وبحثوا عن الوسائل لتحقيق ذلك. لكن القصر أبعدهم وعزلهم أو رمى بهم في زنازنه. وقد خاب أمل بعضهم في مقاومة النظام وتعودوا على منافعه الى درجة أنهم أصبحوا عاجزين

عن الانفصال عنه. ومع ذلك يأملون أن تغيثهم بلاغتهم اذا ما سقط النظام.

٣) وبالنسبة للشباب، فان النظام لا يملك غير وصفات مصطنعة لخلق روح المواطنة وتنميتها لديهم. واذا كانت الكوارث الطبيعية أو النزاعات حول الحدود قادرة على احيائها، فان ذلك لا يتم الا بصبغة موقتة في أحسن الاحوال. أما الحلول الظرفية والمرتجلة، فان التكرار يفقدها كثيرا من فعاليتها. ان تجنيد الشباب بالقوة في جماعات العمل سيؤدى بهم لا محالة الى الحقد وليس الى الاعتزاز، لانهم يعرفون أكثر من غيرهم أن المحظوظين ليسوا مطالبين بنفس التضحيات وبنفس التفاني.

★